الفصل الخامس:

المنهج والأسلوب القرآنى في مجادلة أهل الكتاب

المبحث الأول

منهج القرآن في مجادلة أهل الكتاب

مما سبق من التفسير التحليلي للآيات التي تكلمت عن أهل الكتاب في القرآن الكريم،يتبين لنا المنهج القرآنى في محاورته ومجادلته المباشرة لأهل الكتاب وهي كالآتي:

١ - طالبهم الله عز وجل بالإيمان بالقرآن لأنه مصدق لما معهم من التوراة، فالتصديق بالقرآن معناه التصديق لما معهم من التوراة والانجيل

٢ - المنهج القرآني الواضح والصريح مع يهود في تبيين بعض قبائحهم وجرائمهم من قتل للأنبياء وكفر بآيات الله،وتكذيب القرآن لهم الإدعاء الكاذب بأنهم شعب الله المختار

٣ - قصة البقرة وما اشتملت عليه من عظات وتوجيهات منها:

أ - دلت على سوء الأدب مع مرشديهم وفظاظتهم وغلظتهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم

ب - التنطع في الدين والإلحاف في المسألة يؤديان الى التشديد في الأحكام، فشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم

ج - عدم اعتبارهم بالعظات والمثلات لقساوة قلوبهم وسوء طباعهم - سبحان الله - انظروا ما يفعلونه بأطفال وشيوخ ونساء فلسطين ولبنان من قتل وتشريد دون رحمة أو رأفة - وما ذلك إلا لانطماس بصيرتهم وقلوبهم التي أصبحت كالحجارة أو أشد قسوة، بل تعدوا على آيات الله فحرفوا الكلم عن مواضعه واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا

٤ - المنهج القرآني الصريح الذي بين أكاذيبهم ومخالفاتهم ونقضهم المواثيق مع الله تعالى فالخزي لهم في الدنيا " ولعذاب الآخرة أشد وأكبر لو كانو يعلمون"

٥ - أما مواقف يهود مع الرسل والكتب والأنبياء فهنا فضحهم القرآن وكشف

الحقائق وأثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق الذي لا يخضع لأهوائهم بدلوا وحرفوا وكذبوا وقتلوا، - والشاهد - مواقفهم مع نبيهم موسى عليه السلام والقرآن ملىء بهذه المواقف وحدث ولا حرج، وكذلك مواقفهم مع آخر رسلهم عيسى عليه السلام

٦ - أما عن عبادة العجل المقدس عندهم وحب الحياة وعداوة جبريل والملائكة والرسل تحدث عنها القران بمنهجية واضحة فبعد أن أنجاهم الله من فرعون ورأوا المعجزات الواضحات عبدوا العجل، وصفهم القرآن أيضا أنهم أحرص الناس على - حياة - أى حياة مهما تكون رذيلة منحطة، وهناك سمة أخرى من سماتهم ألا وهي عداوتهم لجبريل - عجيب - كونهم يحقدون على الرسول ﷺ وكون جبريل عليه السلام نزل على محمد ﷺ عادوه وقالوا ينزل بالدمار والخراب علينا،هذه هي أخلاقهم واضحة جلية كما بينها وفندها القرآن

٧ - بين القرآن أيضا مواقفهم من المؤمنين، لقد تمنوا ارتدادهم إلى الكفر بعد أن أنقذهم الله منه،بين الله عز وجل أن الذى حملهم على ذلك،ليس إلا الحقد والحسد، وقد أمر الله المؤمنين بالصبر والعفو والصفح حتى يأتى الله بأمره الحكمة تجعل العفو والصفح خير من العقوبة والتأنيب،وأمرهم مع ذلك بالمحافظة على إقامة الشعائر والتمسك بدين الله تعالى الذى يطهر القلوب ويزكى النفوس

٨ - سورةالبقرة فى أكثر من مائة آية بينت مواقفهم وحججهم وأخلاقهم،من قتل ودمار وتخريب حتى مساجد الله ما سلمت من شرهم،ومع ذلك يذكرهم الله تعالى بنعمه عليهم لعلهم يخافوا الآخرة - يذكرهم بأنه تعالى فضلهم واصطفى منهم أنبياء ورسل، وذكرهم عز وجل بالآخرة عسى أن يرحمهم إن عادوا إليه وتابوا وأنابوا

٩ - و من ضمن الحوار المنهجي للقرآن مع أهل الكتاب أنه طرح عليهم سؤال واضح**{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ**

نَصَارَى}[1]؟ - سؤال لا جواب عليه الله أعلم ليس أنتم! وبين المنهج القرآني أنهم يتخذون الذرائع استكباراً حتى يقسموا الصف المسلم، ويفرقوا بين المسلمين والدليل على ذلك كما ظهر لنا في حكمة تحويل القبلة، وأن تروا ما جاء به الرسول ﷺ فبين تعالى لرسوله مهما يأتهم بكل آية أو حجة لن يؤمنوا فأساس الإنكار الكبر والعناد مع علمهم يقينا بما في كتبهم أن النبي ﷺ على الحق المبين

١٠ - المنهج القرآنى الواضح في الحوار مع أهل الكتاب علمنا أن التوراة التي في أيدي يهود اليوم ليست هي التي أنزلها الله على موسى عليه السلام لانقطاع سندها، واشتمالها على القصص والعبارات التي تتهم أنبياء الله عليهم السلام بما لا يليق بهم، التي تتنزه الكتب السماوية عن ذكرها، وكذلك الحال بالنسبة للأناجيل التي في أيدي النصارى اليوم، إنما هي مؤلفات ألفت بعد عيسى عليه السلام، ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه [٢]

١١ - بين القرآن أن الله هو الخالق لكل ما سواه، وأنه رب لكل ما اتخذه الكفار والمشركين ربا مما دونه، وشهد عز وجل بذلك وملائكته وأهل العلم من خلقه، وبين القرآن لأهل الكتاب أنهم اختلفوا في الحق مع علمهم أنه الحق بعدما تبين لهم، ولأن العلم كالمطر لا تستفيد إلا الأرض النقية، ومن هنا كان اختلافهم بغيا بينهم، فهم أهل مغالطات ولجاجة وأكاذيب وافتراء على الله، فالمطلوب منهم ومن غيرهم الإخلاص لله وحده والانقياد له عز وجل

١٢ - كان المنهج القرآني واضحا تماما عندما خاطب أهل الكتاب في قضية قتل الأنبياء، بين لهم المصير المحتوم بالعذاب الأليم وبطلان الأعمال في الدنيا والآخرة

١٣ - القرآن يدعو الأمم إلى توحيد الله من عهد آدم، فآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى كلهم دعوا الناس إلى عبادة الله الواحد القهار، ثم بين القرآن قلة اعتماد أهل الكتاب على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار عندما جادلوا في إبراهيم

(١) البقرة: ١٤٠.
(٢) ظلال القرآن ١٩١بتصرف.

عليه السلام، وما أنزلت التوارة والإنجيل من بعده**{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** توحيد مطلق لله تعالى

١٤ - ومن سيم يهود: التلاعب بالدين، فهم أهل خداع يظهرون الإسلام ثم ينقبلون إلى الكفر ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب في صفوف المسلمين حتى يقع ضعاف الإيمان في حيرة واضطراب، فهذا مسلك من مسالك اليهود الماكرة التي أرادوا من وراءها كيد الإسلام والمسلمين، فهم الذين قالوا:**{لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ}** وهم لا يرقبون منهم إلاً ولا ذمة، وهم أهلُ خيانةٍ وكفرٍ وجحودٍ وهذا الصنف هو أكثر أهل الكتاب لأنهم ليسوا سواء

١٥ - بيَّن القرآن أن شعار الإسلام هو الإيمان بالرسل والأنبياء والكتب**{وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ}**[1]، وبيَّن أنه من يطلب دينا غير الإسلام فهو خاسر، ولن يقبل منه غير هذا الدين الذي ارتضاه عز وجل دينا له، لذلك كان المنهج واضحاً وكذلك موقف المسلمين من أهل الكتاب والتحذير منهم لأنهم يبثون الشبه لتضليل المؤمنين، ورغم هذا كله يفتح الله سبحانه وتعالى لهم باب التوبة لمن أراد التوبة منهم وطريق الهداية لمن أراد الهداية منهم وهناك أمثلة من اليهود قبل الإسلام، الذين أسلموا وتابوا إلى الله في عهد النبي ﷺ منهم: حبر اليهود عبدالله بن سلام، وأسد بن عبيد الله، وثلعبة بن شعبة، وكعب الأحبار، ومن النصارى النجاشي ملك الحبشة

١٦ - ذكر الله عز وجل الكثير عن تعنت يهود، بيَّن أن قلوبهم مردت على الكفر بآيات الله والطغيان وقلة الإيمان، ونقض العهود والمواثيق وقتل الأنبياء بغير حق، فهم من حاول قتل عيسى عليه السلام، قالوا:**{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ}** مزاعم كاذبة، أقوايل باطلة، وذلك ما قالوه إلا من باب التفاخر - التفاخر في ماذا؟! في القتل، في الفساد في الأرض، في هدم الديار، في احتلال البلاد، فما نراه الآن من فعل يهود هو بعينه ما بيَّنه القرآن الكريم - ولا حول ولا قوة إلا بالله

(١) آل عمران: ١١٩.

١٧ - بين عز وجل حقيقة عيسى عليه السلام، وأنه ليس كما زعمت النصارى أنه إلها أو ابن إله، وإنما هو عبد الله ورسوله

١٨ - إن هذا القرآن هو معلِّم هذه الأمة ومرشدها، قصَّ علينا ما وقع من بني إسرئيل من اللَّعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم، فالقرآن هو نور المبين يا أهل التوراة والإنجيل، والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي فيه بيان ما اختلفتم فيه

١٩ - التوبيخ بسبب دعواهم الباطلة أن لهم مزية على سائر الخلق في قولتهم أنهم أبناء الله وأحبائه، قول باطل وجهل بما اشتملت عليه كتبهم، تخبط في الكفر والضلال مع فهم سقيم لمعاني الألفاظ، - سبحان الله - واقعهم يناقض دعواهم؛ فقد عذبهم الله عز وجل في الدنيا بالقتل والمسخ والأسر وتهيج العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة، وكذلك ضرب الذلة والمسكنة عليهم

٢٠ - كان المنهج والطريق واضح للمؤمنين من خلال آيات القرآن العظيم بعدم موالاة اليهود والنصارى لأنهم جميعا يد واحدة عليكم، فملة الكفر ملة واحدة، فهم مع كراهيتهم بعضهم بعضا واختلافهم فيما بينهم متفقين على كراهية الإسلام والمسلمين

٢١ - حكى القرآن عن بعض أوصاف يهود كيف أنهم أظهروا باءهم بقولهم:**{يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ}** غُلَّت أيديهم ولعنوا بما قولوا، وقولتهم:**{قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء}** ورغم ذلك يبيِّن الله عز وجل أن باب التوبة مفتوح**{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** لقبول توبتهم رغم ما ارتبكوا من ذنوبب عظيمة وكثيرة، فهو الله عز وجل عظيم المغفرة وواسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا

٢٢ - البشرى من موسى وعيسى عليهما السلام بمجيء النبي ﷺ بشرا ببعثته وصفاته ومنهج رسالته وبخصائص ملَّته لقد أحل لهم الطيبات وحرَّم عليهم الخبائث، ويضع عمن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي كانت عليهم؛ فمن أيَّده ونصره ووقَّره منهم، واتبع النور الهادي الذي معه أولئك هم المفلحون ومن المنهج القرآني الواضح النهي عن تعدد الآلهة، تارة عن طريق

النهي الصريح، وتارة عن طريق القصر، وتارة أخرى عن طريق التخصيص وكذا، توعد الله عز وجل المكذبين للرسل بالعذاب الأليم

٢٣ - ثم بيَّن الله عز وجل المنهج والأسلوب الأفضل في الجدال مع أهل الكتاب وغيرهم بالقول الحسن؛ فالكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، وتندي جَفافها، تجمعها على الود الكريم، فالشيطان يتلمس السقطات ليغري العداوة والبغضاء بين البشر، والكلمة الطيبة تسدُّ الثغرات وتقطع عليه الطريق، فما كان اللين في شيء إلا زانه وأمرنا أيضا، بالبعد عن المجادلة بالباطل والمخاصمة والمنازعة

٢٤ - أمرنا بالتمسك بالقرآن، فهو حجة لمن اتبعه وتمسك به وحجة على من جعله خلف ظهره وأهمله، وكذلك أمرنا بتوحيد الله كما أمر الأنبياء جميعاً، وبيَّن المنهج القرآني أدلة توحيد الله عز وجل واضحة جلية

٢٥ - ثم بيَّن المنهج القرآني على وجه الخصوص مجادلة أهل الكتاب بالحسنى لبيان حكمة هذه الرسالة العظيمة، وإنما هذه المجادلة بالحسنى مقصورة فقط على من لم يظلم منهم**{إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}** وكذا وضَّح القرآن أخلاق الحبيب محمد ﷺ، وبيَّن أنه المثل الأعلى في الأخلاق، إنّه محمد ﷺ وحده الذي عَلِم الله عز وجل منه أنه أهل ليبلِّغ هذه الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة والشواهد في أسلوب دعوته ﷺ مع أهل الكتاب وغيرهم واضحة، وقد بيَّنتها في مواضع أخرى من هذا البحث

فالنبي ﷺ جاء ليتمِّم مكارم الأخلاق؛ نهى عن الجور والظلم والخداع، وقتل النفس بغير حق، وإرهاب الآمنين، والاعتداء على الحرمات والأعراض، ونهى عن إشاعة الفاحشة بأي صورة من الصور، ونهى عن الغش والربا، وشرب الخمر، وأكل أموال الناس بالباطل، لذا وصفه الله عز وجل في كتابه**{وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**

* * * * *

المبحث الثانى

أسلوب القرآن في مجادلة أهل الكتاب

مما سبق من الآيات التى تكلمت عن أهل الكتاب فى القرآن الكريم يتبين لنا أنه فى محاورته وجداله معهم قد تصداهم وواجههم ووبخهم على عنادهم وكفرهم بالله ورد على شبهاتهم وفضح كيدهم، لقد أشركوا با لله وكذبوا وحرفوا أياته

كان الأسلوب واضحاً عندما واجههم فى قتلهم للأ نبياء بغير حق وكذلك من يأمر بالقسط من الناس

وبين القرآن أنه ضربت عليهم الذلة والمسكنة بسبب هذه الذنوب والجرائم التي يرتكبوها، تارة بالمسخ والقتل وتارة بالأسر

بين القرآن الكريم ضلالهم واختلافهم فيما بينهم وعداوتهم لبعضهم البعض

وضح القرآن أنهم ما تركوا أبواب الهداية والاستسلام لربهم والانقياد لدين الإسلام

إلا كبرا وحسدا من عند أنفسهم مع علمهم التام بأن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام حق وضح القرآن الكريم أن شعار المسلمين هو: الإيمان بالله وكتبه ورسله دون التفريق بين أحد منهم،فبين عز وجل أن الدين عند الله الإسلام، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الأخرة من الخاسرين، لذا حذر القرآن من أهل الكتاب ومن شرورهم وكيدهم،فهم أهل زور وبهتان، والقول على الله بغير حق

قال الشيخ سيد قطب رحمه الله:

إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد، ويتحول - في بعض المواضع - إلى صواعق وحمم إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق، وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من جزاء، موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}

قالوا: إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تستمع إلى داعيةٍ جديد! قالوها

تيئيساً لمحمد ﷺ وللمسلمين، من دعوتهم إلى هذا الدين؛ أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول ويقول الله رداً على قولتهم:**{بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}** أي إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى**{فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ}** أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع

وقد كان كفرهم قبيحاً، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، واستفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم:

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر:**{فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ}**

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:

{بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع وإن بدا تمثيلاً وتصويراً لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه،وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده وكان هذا

وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم: أمخافة أن يؤتى أحد مثل ما

أوتيتم من الكتاب والنبوة؟ أو مخافة أن يحاججكم المسلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بالحق وأنتم كفرتم به؟ أمخافة ذلك دبرتم ما دبرتم من هذه الأقوال السيئة والأفعال الخبيثة؟ لا شك أنه لم يحملكم على ذلك المنكر السيئ إلا الحسد لمحمد ﷺ ولقومه وزعمكم أنكم أفضل منهم لأنكم - كما تدعون - أبناء الله وأحباؤه فدفعكم ذلك كله إلى كراهية دينه والكيد لأتباعه

إن القرآن الكريم يصور ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة، وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالقحط والوباء والهزائم بسبب مفاسدهم، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقابه، فعادوا إلى عماهم وصممهم - إلا قليلاً منهم -، وارتكبوا ما ارتكبوا من منكراتٍ بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها**{وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** وبعد أن بين - سبحانه - أنماطاً من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة شرع في بيان قبائح النصارى وضلالاتهم وأرشدهم إلى طريق الحق والصواب، وحذرهم من السير في طريق الغواية والعناد فقال - تعالى:

{لَقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ}

قال الفخر الرازي: اعلم أنه - تعالى - لما استقصى الكلام مع اليهود، شرع ههنا في الكلام مع النصارى، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم

وهذا هو قول اليعقوبية؛ لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلها، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله - تعالى - حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى

أي: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا: إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر؛ لأنهم غالوا في إطراء عيسى وفي وضعه في غير موضعه كما غالت اليهود في الكفر به وفي وصفه بالأوصاف التي هو برىء منها وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال؛ ويذكرهم بعصيانهم القديم، وما جره على فريق منهم من المسخ في الدنيا؛ وما جره عليهم جميعاً من كتابة الذل

عليهم والغضب أبداً اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم

هذا، وبتدبير آيات القرآن نراها قد وضحت العلاقات النهائية بين المسلمين، وأ هل الكتاب وهى أنهم:

أولاً:**{لاَ يُؤْمِنُونَ بالله}** لأنهم لو كانوا مؤمنين به إيماناً صحيحاً، لاتبعوا رسوله محمداً ﷺ ولأن منهم من قال:**{عُزَيْرٌ ابن الله}** ومنهم من قال:**{المسيح ابن الله}** وقولهم هذا كفر صريح، لأنه - سبحانه - منزه عما يقولون

قال - تعالى:**{قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصمد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ له كُفُواً أَحَدٌ}**

وثانياً: أنهم " لا يؤمنون باليوم الآخر " على الوجه الذى أمر الله - تعالى - به، ومن كان كذلك كان إيمانه على فرض وجوده كلا إيمان

قال الجمل ما ملخصه: فإن قلت: اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف نفى الله عنهم ذلك؟

قلت: إن إيمانهم بهما باطل لا يفيد، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالنبى ﷺ فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر كالعدم فصح نفيه فى الآية ولأن إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون الحلول، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك

وأيضاً فإن إيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المؤمنين، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون - أى أنهم يرون نعيم الجنة**{وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}**

وهكذا يتتبع القرآن الكريم مواضع شبهاتهم فرسول الله ﷺ عاش بينهم فترة طويلة من حياته، لا يقرأ ولا يكتب؛ ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يعجز القارئين الكاتبين ولربما كانت تكون لهم شبهة لو أنه كان من قبل قارئاً كاتباً فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم؟

ونقول: إنه يتتبع مواضع شبهاتهم،فحتى على فرض أن رسول الله ﷺ كان قارئاً كاتباً، ما جاز لهم أن يرتابوا فهذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر فهو أكبر جداً من طاقة البشر ومعرفة البشر، وآفاق البشر والحق الذي فيه ذو طبيعة مطلقة

كالحق الذي في هذا الكون وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب بأن وراءه قوة، وبأن في عباراته سلطاناً، لا يصدران عن بشر!

{بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون}

فهو دلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم، لا لبس فيها ولا غموض، ولا شبهة فيها ولا ارتياب دلائل يجدونها بينة في صدورهم، تطمئن إليها قلوبهم، فلا تطلب عليها دليلاً وهي الدليل والعلم الذي يستحق هذا الاسم، وهو الذي تجده الصدور في قرارتها، مستقراً فيها، منبعثاً منها؛ يكشف لها الطريق، ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك! **{وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون}** الذين لا يعدلون في تقدير الحقائق وتقويم الأمور، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم

لا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، إلا بالطريقة التى هى أحسن، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم، كما قال - تعالى - فى آية أخرى: **{ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ}** وقوله: **{إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** استثناء من الذين يجادلون بالتى هى أحسن

أى: ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم بأن أساؤوا إليكم، ولم يستعملوا الأدب فى جدالهم، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة: دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى فى مجادلتهم لأهل الكتاب عموماً ما عدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم

وقيل: المراد بأهل الكتاب هنا: المؤمنون منهم، والمرد بالذين ظلموا: من بقى على الكفر منهم

فيكون المعنى: ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب، ولأن من ترك كفره منهم ودخل فى الإسلام أصبح مسلما وليس من أهل الكتاب، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون فى

حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته، ولأن قولـه - تعـالى - بعد ذلك:**{وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ}** يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم

أى: جادلوهم بالطريقة الحسنى ما داموا لم يظلموكم، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد**{آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا}** وهو القرآن، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل

قال الشوكانى: أى: آمنا بأنهما منزلان من عند الله، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه**{وإلهكم وَاحِدٌ}** لا شريك لـه لا فى ذاته ولا فى صفاته**{وَنَحْنُ}** جميعاً معاشر المؤمنين**{له مُسْلِمُونَ}** أى: مطيعون وعابدون لـه وحده، ولا نتخذ أربابا من دونه - عز وجل

قال القرطبى ما ملخصه: اختلف العلماء فى قولـه - تعـالى:**{وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب}** فقال مجاهد: هى محكمة، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل -، والتنبيه على حججه وآياتـه وقولـه:**{إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ}** أى ظلموكم

وهكذا أسلوب القرآن فى مجادلتهم يتصدى لهم مباشرة بإعلامهم أن الله مطلع على مافى قلوبهم وأنه مخرج مايحذرون،لقد جلى القرآن لعباده أمورهم وكشف أسرارهم وفضح كيدهم لنحذر منهم

لقد أكد القرآن فى أسلوبه ومحاورته مع أهل الكتاب على أنهم إن لم يتوبوا ويعودوا إلى الحق الذى هوالإيمان بالله وحده وبرسوله محمد ﷺ، وبأن الدين الحق هو دين الإسلام الذى لايقبل الله دينا سواه فإن المصير عذاب مقيم فى جهنم وبئس المصير، ومع ذلك فإن باب التوبة والرحمة مفتوح لهم وذلك بشرط الإيمان بالله ورسوله